الظاهرة الصوتية في القرآن عند علماء النحو

The phonetic phenomenon in the Quran according to grammarians

د- بولعشار مرسلي[1,*]

[1]جامعة تيسمسيلت، (الجزائر)، boulacharmrsl7@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2022/02/15 تاريخ المراجعة: 2022/03/14 تاريخ النشر: 2022/03/30

ملخص:

اهتم علماء النحو القدامى أيما اهتمام،بكل ما يتعلق بكتاب الله و من بين هذا الاهتمام ،تركيزهم على الظواهر الصوتية الموجودة فيه، فكانت أبحاثهم جد مهمة لكونها تعد من أهمّ ما استند عليه العلماء المتأخرون في استكناه الظّواهر الصوتية والتي تعد من الإعجاز اللغوي في القرآن .

كما أراد النحويون استخراج واستخلاص أهمية هذه الظواهر التي تدخل في تقويم بنية الكلمة العربية لتخليصها من تشويهها البنوي، حتى يتسنى للناطقين سهولة نطقها ومعرفة ادائها بشكل جيد ومن بين أهمّ هذه الظّواهر الصّوتية التي وقف عليها النّحاة اخترنا بعضا منها ممّا كان لها صدى عند البلاغيين مثل: الإبدال، الإدغام، القطع والاستئناف، الحروف المستحسنة والمستهجنة.

الكلمات المفتاحية: القرآن ، الصوت، الظاهرة، النحويون، الحروف.

Abstract:

The ancient grammarians paid great attention to every thing related to the book of god,and among this interest,they focused acoustic phenomenon present in it.

the grammarians also wanted to extact and extract the importance of this phenomena that are included in evaluating the structure of Arabic word in order to rid it of its structural distortion,so that the speakers can easily pronouns it and know its performans well.

substutition, diphthongs, interruption, and resumes, recommomended, and disapproved letteres.

Key words:the Quran,sound,the phenomenon, the grammarians, the letteres.

تقديم:

إنّ اتّساع رقعة العالم الإسلامي وزيادة المعتنقين لدين الإسلام من غير العرب كانت كفيلة بتشكيل الخطر على الخطاب القرآني، فبعد زمن غير بعيد عن أولئك الذين نزل القرآن بلسانهم-العرب- وكانوا لا يُضامون في فهم معانيه، ويجيدون قراءته من غير ضبط بالنّقاط أو الشّكل، تجلّت أولى ملامح العدول عن الفصاحة فظهرت غائلة اللّحن في قراءة القرآن، التي صارت أكبر خطر يهدّد النّص القرآني، ممّا كان كفيلا بظهور بوادر تنافح عن بلاغة القرآن وتضمن فصاحته.

* المؤلف المراسل.

لهذا تصدى النحاة إلى أصحاب اللحن ,بحيث وقفوا سدا منيعا ضد تفشي اللحن بين الناطقين باللغة العربية,وخوفا على كلام الله ,اشتغل النحويون وألفوا كتبا ,وبذلوا جهودا جبارة في التعريف بالنطق الصحيح للحروف,اهذا رمنا أن نعرق بجهود بعض النحويين أمثال,أبو الأسود الدؤلي وسيبويه وخليل بن احمد.

والسؤال الطروح:فيما تمثلت جهودهم ؟وماهي هذه الظواهر الصوتية المجودة في القرآن الكريم والتي توصف بأنها ظواهر إعجازية وهي كذلك.

1- ظاهرة اللّحن وجهود أبي الأسود الدّؤلي:

تعدّ مبادرة أبي الأسود الدّؤلي التي وضعها بإيعازٍ من علي بن أبي طالبٍ بعد ظُهور غائلة اللَّحن في اللسان العربي من المُرتكزات الأولى للدّراسة الصّوتية في التّراث العربي، وذلك خوفاً من وُصوله إلى القرآن الكريم، بعد أن وقعت بعض الهنّات والزّلات أثناء نطق بعض الآيات، وقد ذُكر أنّه سمع رجلا يقرأ الآية﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾(سورة التوبة ,الأية03) بكسر لام لفظة "رَسُولُهُ" بدلاً من ضمّها، مما يؤدّي تماما إلى تغيير معنى الآية والحياد عن مرادها، حيث يفيد هذا الخطأ في الصّوائت بأن الله يبرأ من رسوله، ممّا كان سببا مباشرا لدقّ ناقوس الخطر المحدق بالخطاب القرآني؛ فالتمس أبو الأسود من أمير المؤمنين آنذاك زياد بن أبيه، بعد أن قصّ عليه ما سمع، أن يمكّنه من كتابة كتاب في اللغة للذّود عن حياضها والمحافظة على أسوارها.

وبناء على هذا الطّلب من أبي الأسود انبرت أولى ملامح احتضان الدّرس الصّوتي، حيث تجلّت أولى أعماله في تنقيط المصحف العثماني وفقا للهيئة الفيزيولوجية التي تظهر بها الشفتان بقوله:«إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنّة، فاجعل مكان النقطة نقطتين».1

لقد كان لهذا العمل الجليل من أبي الأسود الدّؤلي الأثر الجلي في وضع الرّوافد الأولى للمحافظة على اللسان العربي عموما والخطاب القرآني خصوصا، فكان هذا نهج أبي الأسود في تشكيل الحروف، لذا فهو يعد أول من نقط المصاحف، وأخذ عنه النّحاة هذا النهج واهتدوا بهديه على غرار عنبسة الفيل، ويحي بن يعمر، ونصر بن عاصم، وميمون الأقرن.

تجلّت أُولى ملامح الدّراسة الصّوتية العربية التي أرسى كيانها أبو الأسود الدّؤلي مُتمظهرةً في الإشارة إلى مخارج الأصوات العربية وصفاتها، ممآ جعل الأسس التي انطلق منها تشهد عنايةً منقطعة النّظير، لتشهد بعد ذلك الدّراسة الصّوتية تشظٍّ وتوسُّعٍ عند النّحاة ثم البلاغيين، كان هدفها التقعيد والتثبيت لإرساء آلياتٍ من شأنها سبرُ أغوار الظاهرة الصوتية عند العرب؛ إلا أنَّ قدم السّبق في وضع معالم الدراسة الصوتية تعود إلى النُّحاة بالدرجة الأولى، ويُعدُّ الخليل بن أحمد الفراهيدي الأساس في إرساء هذه الدراسة وسبر أغوارها.

إنّ لغة القرآن الكريم لغة لا تعرف التشنّجات في بنيتها، ولا التغيرات في قواعدها، ممّا مكّنها أن تكون بثرائها الزّاخر كفيلة لولوج مخابر التقعيد و التأليف، وهذا ماجعلها تمنح القدرة العقلية والعلمية للنّحاة

وتمكّنهم من مواجهة غائلة اللحن، الأمر الذي دفع بهم لصناعة المعاجم ووضع الضّوابط لتمكين المتعلم من فهم أسرار الكتاب المبين، حتى لا يتوغل الدخيل في لغته، فيحيد عن مراسم البلاغة والفصاحة القرآنية.

2- **لمسات الخليل البلاغية في كتابه العين:**

أرسى الخليل بن أحمد الفراهيدي(175ه) البذور الجنينية لهذا اللون من الدراسة بتكشُّفه عن المخارج، حين كان يهدف إلى وضع معجم للّغة العربية على غرار معاجم الحضارات الأخرى، حيث استهلَّ ترتيبه للمخارج بأعمق تلك الحروف وأبعدها مخرجا وهو العين، وقد جعل الخليل مخارج الحروف في:المبدأ والمخرج والحيّز والمدرج2.

ووفقاً لثنائية العمق والبعد للمخرج تدرّج في التّرتيب إلى أن وصل إلى الحروف الشّفوية وهي (الفاء والباء والميم)، ثم الحروف الجوفية أو الهوائية وهي حروف المد(الواو والألف والياء) إذ يقول:«فأقصى الحروف كلّها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء ولولا هتّةٌ في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرجها من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف من حيّز واحد بعضها أرفع من بعض، ثم الخاء والغين في حيّز واحد كلّهن حلقية، ثم القاف والكاف لهويتان، والكاف أرفع، ثم الجيم والشين والضاد في حيّز واحد، ثم الصّاد والسّين والزّاي في حيّز واحد، ثم الطّاء والدّال والتّاء في حيّز واحد، ثم الظّاء والذّال والثّاء في حيّز واحد ثم الرّاء واللاّم والنّون في حيّز واحد، ثم الفاء والباء والميم في حيز واحد، ثم الألف والواو والياء في حيز واحد ،والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تنسب إليه»3.

إنّ عناية الخليل بمخارج الحروف وحصره لها في أحياز يوحي بتفطنّه إلى أهميّة تحديد هذه الأحياز لما لها من الأهميّة أثناء النّطق، فتموقع الأصوات وحسن توزيعها وتجاورها يزيد الكلام تلاؤما، والأسلوب انسجاما واتّساقا، وهذا ملمح من ملامح جودة الكلام وحسن تأليفه عند البلاغيين؛ فقد أشار ابن سنان الخفّاجي(466ه)إلى أنّ التلاؤم الصّوتي تتحكّم فيه عدّة عوامل مختلفة منها مخارج الحروف، فبقدر تباعد المخارج يتحقق التّلاؤم والانسجام بخلاف تقاربها وتجاورها.4

كان هدف الخليل وضع سياجٍ للّسان العربي بُغية تحصينه من الدَّخيل الذي يشكّل خطرا على معالم الفصاحة العربية، حيث رأى أنّ كل لفظة على«نحو الكَشَعْتج والخَضَعْثَج والكَشَعْطَج وأشباههنّ، فهذه مولّدات لا تجوز في كلام العرب ، لأنّه ليس فيهنّ شيئ من حروف الذّلق أو الشفويّة فلا تَقبلنّ منها شيئا، وإن أشبه لفظهم و تّأليفهم».5 وبناء على هذه المفاهيم، عمدَ إلى نظام التّقليبات السّتة لمعرفة المستعمَل في العربية من المهمل، وتظهر فائدة وثمرة عمل الخليل في احتواء معجمه على أصول العربية الفصيحة الخالية من الغريب المستهجن مما كان عليه عصر الخليل آنذاك، وما يمكن قوله بأن بداية الدرس اللغوي مع أبي الأسود كانت لدفع اللحن، أمّا عمل الخليل ومَن جاء بعده فكان يهدف إلى تنظيم النطق ومعرفة آلياته، فالخليل بن أحمد الفراهيدي «في ذائقته الصّوتية هذه، قد قلّب حروف العربيّة فوضعها في منازل معيّنة، ضمن مخارج صوتية معيّنة، بحسب مدارج مقدّرة، من أقصى الحلق حتّى إطباق الشّفة في الميم، واتّضح أنّ الخليل رحمه الله قد صنّف هذه المخارج إلى عشرة أصناف»6.

ممّا جعل مساهمة الخليل تُعدُّ بحقٍ فاتحة التأسيس ومحور التأصيل لحقل الصّوتيات العربية التّراثية والذي تمثّل في معجم العين، ممّا جعله يحوز الأسبقية المنهجية في ترتيب معجمه، وأكسبه ريادة تاريخيةً في حسن التدوين وجمال التأصيل. وبناءً على هذا التقسيم حذا من جاء بعد الخليل من النُّحاة فكان لا مناص لهم من الاستكانة إلى رؤيته، والارتهان إلى مجهوداته وأطروحاته، باستثناء بعض التفصيلات والنظرات التّجزيئية للمخارج، فكان عملهم تثبيتا وتقعيدا لما جاء به الخليل، بغضّ النظر عن بعض الزيادات الثانوية كالشّواهد من القرآن والشّعر والحديث النبوي، أو عزوِ الشّواهد الخليلية إلى أصحابها.

كان للخليل لمسات بلاغية هامّة في كتابه العين أشاد بها العلماء، فقد ذكروا أنّه«كانت له ملاحظات بلاغية قيّمة أودعها سيبويه كتابه الذي يُقالُ إنّه جمع أصوله ومسائله من صنع الخليل نفسه»7.

إذ إنّه أشار إلى العديد من المرتكزات البلاغية على غرار الفصاحة التي تُعدّ ركيزة أساسية في الدّرس البلاغي لما لها من تعلّق بالألفاظ والمتلفّظ معا، فقد أشار إليها في مادّة فصح بقوله:« تفصيح اللّبن: ذهاب اللّبأ عنه وكثرة محضه وذهاب رغوته، فصّح اللّبن تفصيحاً، ورجل فَصِحَ فَصُحَ فَصَاحَةً، وَأَفْصَحَ الرجُلُ القول»8.

كما تناول الخليل أدقّ مسألة في البلاغة هي حسن انتقاء الأصوات وكيفية تأليفها وأثرها في جمال اللفظة وتجانسها، فقد ذهب إلى شناعة تأليف الألفاظ من بعض الحروف التي لايُستحسن تجاورها على غرار القاف والكاف والجيم، وإلا كانت هذه اللفظة من الألفاظ المولّدة نحو: جِلْق وجوسق»9

إنّ حديث الخليل عن انتقاء الأصوات وكيفية تأليفها، والإشارة إلى صفاتها على غرار صفتي الجرس في العين والقاف وأثرهما في اللفظة وما ينتج عنه من الدّلالة، يُعدّ ملمحا من ملامح البلاغة التي عالجها البلاغيون في باب الجناس.

3- لمسات سيبويه البلاغية في كتابه الكتاب:

يُعدُّ "سيبويه"(180ه)الرافد المرجعي بعد "الخليل" في الوقوف على كنه المستوى الأول للظاهرة اللغوية العربية في مهدها، وبما أنّ "سيبويه" تلميذ "الخليل" فإنّ روح الوثوقية التي كانت تكتنفه في أستاذه، جعلته لم يزد الكثير عن عمل أستاذه في نظرته للمخارج، غير أن قام بعملية تجزيئيةٍ للأحياز الخليلية فتوصل إلى أنّها ستة عشر مخرجا؛ أمّا ما يُلمح صداه عند سيبويه فضلا عن نظرته التدقيقية في المخارج، وُلوجُه وارتقاؤه إلى إثراء الكلام عن الصِّفات المتعلقة بالأصوات، بعد أن اهتدى إلى أن الحروف العربية أصول وفروع، فبيَّن بأنَّ«أصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا»10.

ثم انتقل للحديث عن الفروع وهي ما دون التسع والعشرين المذكورة فقال:«وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هنَّ فروع وأصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي:النّون الخفيفة والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشّين التي كالجيم، والصّاد التي تكون كالزّاي، وألف التفخيم يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم الصلاة والزكاة والحياة»11.

حيث جعل هذه الصفات التي تثبت نطقا لا كتابة معيارا لإضفاء الجمالية في القرآن وهي صفات أو ألفونات تستسيغها الأذن، ويروق سمعها، ولا يَمُجُّ قارئها بخلاف المستهجنة، ولعل سيبويه كان يقوم بعملية استقراء وتنقيب من القرآن والحديث والشعر، فضلا عن الأخذ من أصول القبائل العربية التي لم يتغوّر لسانها غورا فاحشا كقريش وتميم وأسد وكنانة، الذين كان لسانهم يُعَدُّ عرفا لغويا لدى القبائل العربية الأخرى.

إنّ ماذهب إليه "سيبويه" في تكشّفه عن الحروف المستحسنة والمستقبحة هو مايضاهي ظاهرة الإذلاق والإصمات عند البلاغيين، فإذا كان معيار جمال الحروف المستحسنة يؤخذ به في قراءة القرآن ويُستشهد بها في الشّعر، فإنّ الحروف الذّلقية عند البلاغيين تُكسب الأسلوب رونقا والكلام طلاوة، كما تمنحها مصداقية الانتماء إلى اللسان العربي.

كما أنّنا لو نظرنا إلى الحروف المستقبحة المذكورة آنفا، وهي التي لا يُستحسن الأخذ بها في قراءة القرآن، وقد عدّها "ابن جنّي"(392ه) من المستقبحة الممقوتة وبيّن بأنّها «فروع غير مستحسنة، لا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة، غير متقبلة12.

فسنجدها تضاهي الأصوات المصمتة لدى البلاغيين، إذ كلّ كلمة خالية من الحروف الذّلقية ممقوتة عند البلاغيين مستهجنة، بعيدة عن اللسان العربي الأصيل، لأنّ حروف الذّلاقة تُكسب اللفظ خِفّة في النّطق وسرعة في الأداء، وهذا ماتصبوا إليه العرب في كلامهم، ولذلك ذهب الخليل إلى القول بأنّه: «إذا وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من الحروف الذلقية أو الشفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان فما فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب»13 ولا تمتّ إلى رصيدهم اللّغوي بصلة.

وإذا أردنا أن نقف على بعض ملامح الدّراسة الصّوتية العميقة ل"سيبويه" في نظرته للمفارقة بين صفات الحروف، والتي كان لها أثرٌ لدى البلاغيين والقرّاء معا، فإن ذلك يُستجلى على سبيل التمثيل في الصّاد التي كالزاي، وهي حرفٌ من الحروف المستحسنة عنده، حيث تنبّه سيبويه لأهمية هذه الظاهرة الصّوتية السّمعية، والتي يكون نطق الناطق فيها خارجا عن حدود إرادته، ونظرا لضبابية هذا الصّوت الذي يعترض المقومات التعريفية للصّوتين الصاد والزاي، فقد انبرى سيبويه ومَن جاء بعده لِفَضِّ مغاليق هذه الصّورة السّمعية الوسطية، والتي هي اقتناصٌ و امتزاج لصوتي الصّاد والزّاي في المخرج والصفة.

ولم يكن سيبويه الوحيد المهتمّ بهذه الظاهرة الصوتية، فقد أسدى المبرد روعة وصفية لهذه الظاهرة بأنها اعتراض وتوسّطٌ وانتساب للصوتين معا بقوله: «إنه الحرف المعترض بين الزاي والصاد»14. حيث لم يكن لهذه الظاهرة الصوتية التي نقّب عنها سيبويه صدى عند النحاة فقط، بل إنها احتُضنت واكتست رعاية منقطعة النظير عند القراء والمجودين، حيث أطلقوا عليها اسم الإشمام، وسَمَّوها الصّاد المشَمَّة، وهي التي تشم رائحة الزاي، «فالصاد المشمةُ وهي التي بين الصّاد والزّاي فرع عن الصّاد الخالصة وعن الزاي»15.

ولو تناولنا تقسيم سيبويه للحروف من وجهة نظر حداثية، فيمكن القول بأن ما ذهب إليه يُساوق ثنائية لسان/كلام، فقد جعل سيبويه حروف العربية تسعة وعشرين حرفا يوافق اللسان، لأن اللسان يرتهن في دراسته إلى المكتوب والملموس، وأما المستحسن والمستَهجن عنده فكأنّه يوافق الكلام عند المحدثين، وهذا ملمح حسنٌ في تضمُّن التّراث العربي للمقاطع فوق التركيبية، والتي حظِيت بعنايةٍ فائقة في الدراسة لدى المحدثين.

الدّراسة الصّوتية عند ابن جنّي(392ه):

تتجلى ملامح الدّراسة الصّوتية عند ابن جنّي وفقا للملامح التنظيرية التي أفرزتها الدراسة الصّوتية لسيبويه، حيث اكتفى ابن جني بترديد مقولات سيبويه الفيزيولوجية؛ ولعل أهمّ استثمارٍ قام به ابن جني كان انطلاقته من باب الإدغام لسيبويه، حيث أخصبت هذه البذرة التي زرعها سيبويه في باب الإدغام، فأينعت مع ابن جني في كتابه الخصائص حيث تعرض فيه لمختلف الظواهر الفونولوجية، فكان عمله طفرة صوتية في سياق الأطروحات الصّوتية التّراثية، حيث كان يهدف إلى البحث في علاقة الأصوات بالدلالة، ويُلمح ذلك في أربعة أبواب من هذا الكتاب وهي:

أ – باب تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني.

ب – باب الاشتقاق الأكبر.

ج – باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني.

د – باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني.

فعلى سبيل المثال يذكر ابنُ جنّي في باب مقابلة الألفاظ بما يُشاكل الأصوات ويصِفُه بأنه«باب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدِّره وأضعاف ما نستشعره»16.

وعند تعرُّضه لمادة خَضَمَ وقَضَمَ، وبعملية استقرائية توصل إلى أن العرب يستعملون الخضم لأكل الرّطب، ويستعملون القضم لأكل الصّلب، ومما يشدّ الانتباه ويأخذ بالألباب اختيارُ العرب الخاء لرخاوتها وتوظيفها للدلالة الاستعمالية على حسب مقتضى الحال من أكل اللّيّن، وتوظيف القاف لصلابتها وقوّتها لتناول المادة الصّلبة، حيث توخَّى ابن جني هذا الاستعمال عند العرب «حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث»17، كما يذهب ابن جني الى أنّ مجرد التقارب في بعض الأصوات يكفي أحيانا للاشتراك في الدّلالة نحو النضخ والنضح في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ سورة الرحمن، الآية:66 ، وهذه الخاء في الآية الكريمة تدلّ على قوة جريان الماء وتدفّقه بخلاف النّضح الذي يكون جريان الماء أقل من النّضخ؛ حيث نستشفّ الذّوق العربي الأصيل في الاتّكاء على صفات الأصوات للتّعبير عن مضامينها وأحوالها؛ فالتعبير القرآني المُستعملِ للخاء يقذف بالمستمع إلى الإحساس بشدة التدفّق والسّيلان، و بما أن الخاء أخت الحاء وقريبة منها فتقارب اللفظين لتقارب المعنيين، وكأنهم خصُّوا هذا المعنى بالخاء لأنها أقوى من الحاء وهذا المعنى أعظم في النفوس لدلالته على قدرة الخالق من توظيف النضح في الآية.

وبناء على هذه الحيثيات، فإن الإيحاءات الدّلالية التي انتهي إليها ابن جني في بحثه المتعلق بدلالة الأصوات يدفعنا إلى الإقرار بحسّهِ اللغوي الدقيق، وكيف أنه استطاع أن يُبَيّن لنا مدى فاعلية العرب في

استغلال صفات الحروف وتوظيفها وفق مقتضى الحال، فما يتطلّبُ شدة وقُوة يرهنونه بالحروف الفخمة يناسبه من الحروف الشديدة والمستعلية المطبقة، وما يُناسب رِقَّة الحال والضُّعف أو الاضمحلال يُوظّفوا له ما المهموسة والضعيفة اللّينة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على حيوية هذا اللسان الذي ينبغي أن تُسبر أغواره لما يشتمل عليه من لطائف وأسرار.

أهمّ الظّواهر الصّوتية عند النّحاة

كان للعديد من الظّواهر الصّوتية التي تطرّق إليها النّحاة صدى كبيرا عند البلاغيين، ممّا جعل ماتوصّلوا إليه مادّة دسمة ومتّكئا يستند عليه في ترسيخ وتأصيل الدّرس الصّوتي البلاغي، ممّا سيجعلنا نقف عند عتبة بعض من هذه الظّواهر الصّوتية، للتّأمّل في كيفية استغلال البلاغيين لهذه الظّواهر الصّوتية وتفعيلها في أطروحاتهم الصّوتية البلاغية، وإذا كنّا قد أشرنا إلى الحروف المستحسنة والمستقبحة عند سيبويه، فإنّنا سنقرع باب ظاهرتين صوتيتين هما ظاهرة الإدغام، وظاهرة القطع والاستئناف كملمحين من ملامح تحقيق الانسجام البلاغي عند البلاغيين.

1- ظاهرة الإدغام :

تعدّ هذه الظّاهرة من الظّواهر الصّوتية الموجودة في كلام العرب قبل نزول القرآن، فقد وجدت في شعرهم ونثرهم، حيث كانوا يجنحون إليها من أجل تخفيف الكلام من ثقله البنوي، فكان «الإدغام أكثر شيوعا من الإظهار»18، في كلامهم، وممّا زادها ترسيخا نزول القرآن وإثباته لها في كثير من الآيات القرآنية، وهذا ما حقّق لها مُكنة الحضور لدى كلٍّ من النّحاة والمجوّدين والقراء والبلاغيّين، وهذا لما لها من الأثر الحسن في انسجام الكلام عموما و الخطاب القرآني خصوصا، ونظرا لأهميّة هذه الظّاهرة سنقف عند مفهومها وأسبابها وقواعد وقوانينها من أجل استكناهها والوقوف على فاعليّتها في تحقيق الانسجام في الخطاب القرآني.

1-1 مفهوم ظاهرة الإدغام:

لغة: جاء في لسان العرب: «دغم الغيث الأرض يدغمها ودأغمها إذا غشيها وقهرها، والدّغم: كسر الأنف إلى باطنه هشما، دغم أنفه دغماً:كسره إلى باطنه هشما، والدّغمة والدّغم من ألوان الخيل: أن يضرب وجهه وجحافله إلى السواد مخالفا للون سائر جسده، ويكون وجهه مماّ يلي جحافله أشدّ سوادا من سائر جسده، وقدِ ادْغامَّ ؛ وفرس أدغم»19.

اصطلاحا:عرّفه ابن جنّي بقوله 20:الإدغام هو تقريب صوت من صوت، وهو في الكلام على ضربين، أحدهما أن يلتقي المثلان على الأحكام، التي يكون عنها الإدغام، فيدغم الأوّل في الآخر، وهو على ضربين:

أ- إدغام السّاكن الأصل كطاء قطّع، وكاف سكّر.

ب- إدغام المتحرّك نحو شدد فتصبح شدّ.

بناء على هذا التّعريف يمكننا القول بأنّ الإدغام ملمح صوتي وظاهرة فونولوجية غايتها تقريب الأصوات من بعضها عند التّماثل، وإذابة العوائق النّطقية من طريقها عند التّواشج، حتّى تنتج الكلمة متجانسة خالية من الثّقل والتّنافر، «فالحرفان المتقاربان مخرجا أو متفقان يكون النطق بهما ثقيلا على اللسان، وقد شبه النحويون هذا النوع من النطق الثقيل بمشي المقيد، يرفع رجلا ثم يعيدها إلى وضعها أو قريب منه، ولهذا السبب كان الإدغام تسهيلا للنطق وتخفيفا لهذا النوع من اللفظ»21.

كان سيبويه أوّل من قرع باب هذه الظّاهرة في كتابه إذ قال: «هذا باب الإدغام في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لا يزول عنه» 22.وقد بيّن سيبويه بأنّ دأب العربي في كلامه تجنّب الأمثال بغية الخفّة والمرونة في النّطق، كما أنّه تطرّق إلى الإدغام وأنواعه في بابين هما: باب التّضعيف، وباب الإدغام، والمضارعة، كما أشار وأفاد غير سيبويه من النّحاة إلى ظاهرة الإدغام على اختلاف في تسمياتها، « فابن جني (ت392ه) عبر عنها بمصطلح الإدغام الأصغر ،وابن فارس (ت395ه) عبر عنها بمصطلح المحاذاة و المزواجة»24.

2-1 -أنواع الإدغام: من خلال ماأسلفنا أنّ العرب كانوا أمّة يجنحون إلى تخفيف النّطق وتعديل الكلام، فإنّ الدّارسين ألفوا أسباب الإدغام راجعة إلى المجاورة الصّوتية، وقد كان النّحاة

يؤسّسون للدّرس الصّوتي العربي وهم يعلمون أنّه «إذا جاور الشيء الشيء دخل في كثير من أحكامه لأجل المجاورة»، وقد أرجعوا أسباب الإدغام إلى ثلاثة هي25 :

أ/ التماثل: هو أن يتّحد الحرفان ويتشابهان في كلمة واحدة نحو التّشابه في كاف"يُدْرِككُّمُ"في قوله تعالى:﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ سورة النّساء، الآية: 78..أصلها: يُدْرِكُكُم، غير أنّ الدّافع لتجنّب الثّقل في الأداء النّطقي يتطلّب إدغام الكافين، مثلما هو في كلٍّ من روايتي ورش عن نافع، وحفص عن عاصم، كما يرد في كلمتين نحو قوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾ سورة المائدة، الآية: 61، والغرض من هذا الإدغام طبعا هو تخفيف وتسهيل التّلاوة، وذلك بسبب الثّقل النّطقي والجهد العضلي لنطق الحرفين معا، فضلا عن الطّول الزّمني أثناء رفع اللسان مرّتين لنطق حرف واحد.

ب/التجانس: هو «أن يتفق الحرفان مخرجا ويختلفا صفة أو يختلفا مخرجا ويتفقا صفة، كالدّال في التّاء والتاء في الطاء، وكالدّال في الجيم»26، فالدّال والتّاء والطاء أصوات مشتركة في مخرج واحد هو النّطع، وتختلف في الصّفة، فالدّال: من حروف القلقلة، صوت مصمت، مجهور، شديد، رخو،مستفل، بينما الطّاء من حروف القلقلة مصمت، مجهور، مستعلي، شديد، مطبق، وصوت التّاء مهموس، مصمت، شديد، فنلحظ اشتراكا في كثير من الصّفات المشتركة بين هذه الأصوات النّطعية، أمّا الدال والجيم فإنّهما مختلفان مخرجا، لكنهما صوتان متفقان في الصفة كصفة القلقة والشّدّة، والجهر، مصمتين، وهذه الصّفات ممّا مكّن من تجانس هذه الأصوات وتلاؤمها.

يشترط أيضا في المتجانسين أن لا يكون أولهما حرف حلق نحو: "فاصفح عنهم"، لثقل الأصوات الحلقية عند تجاورها، ولذلك عدل القرّاء عند التقاء حرفين حلقيين إلى سُبُل أخرى.

ج/التقارب: وشرطه في الحرفين المدغمين«أن يتقارب الحرفان مخرجا، أو صفة، أو مخرجا وصفة معا كالدّال والسّين والشّين، وكاللاّم مع الرّاء»27، فإدغام المتقاربين مخرجا نحو قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ سورة المجادلة، الآية: 01. فالدال و السّين متقاربتين في المخرج، لأنّ الدّال نطعية مجاورة لمخرج السّين وهو من أسلة اللسان، أمّا المتقاربين في الصّفة فكالواو والنّون من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ سورة الرّعد، الآية: 34.، فسبب الإدغام هو الصِّفات المشتركة بين الحرفين، فكلاهما مجهور متوسّط مستفل مرقّق، أمّا المتقاربة مخرجًا وصفة فمثل التّاء والثّاء كقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾، سورة القمر، الآية:23 فنلحظ عند مقارنة بين

الحرفين تقاربا في مخرج التّاء النّطعي والثّاء اللثوي، كما نرى قاربا في صفتي الحرفين حيث إنّهما يشتركان في: الهمس والاستفال، الانفتاح والإصمات.

3-1- أقسام الإدغام: ينقسم الإدغام إلى نوعين هما:

الإدغام الكبير والصّغير: عرّفهما علماء التجويد كالآتي:«الإدغام الكبير هو: ماكان المدغم والمدغم فيه متحرّكين، ويكون في المثلين والمتقاربين، والمتجانسين؛ والصّغير: ماكان المدغم ساكنا والمدغم فيه متحرّكا، ولا يكون إلا في المتقاربين والمتجانسين»27.

4-1- تجلّي الإدغام في الدّرس البلاغي:

بناءً على ماسبق يمكننا القول إنّ الإدغام ظاهرة صوتية جليلة القدر، لم يقتصر تناولها على النّحاة فقط، بل تناولها أيضا القرّاء والمجوّدون وأسهبوا في الحديث عنها في القرآن الكريم، وقسّموه إلى أنواع منها الكبير والصّغير، ومنها الإدغام بغنّة وبغير غنّة، وجعلوه في ستّة أحرف مجموعة في كلمة(يرملون)،منها حرفان بلا غنّة و هما : اللام و الراء، أما البقية فهي بغنة مجموعة في كلمة (ينمو)28.

إن الإدغام كظاهرة صوتية كان لها تمام الحضور لدى كلّ من النّحاة والقرّاء والمجوّدين وتقبّلها البلاغيّون أيضا بقبولٍ حسنٍ واستأنسوا بها لما لها من الأهميّة في انسجام الكلام وتسهيله، وتحقيق التّلاؤم وتحقيقه، والحياد عن التّنافر الذي عدّه البلاغيّون من عيّ الكلام وممقوته، فالغاية من الإدغام لدى القراء والمجوّدين والبلاغيين هو«التخفيف، لأن اللسان إذا لفظ بالحرف من مخرجه ثم عاد مرة أخرى إلى المخرج نفسه لينطق بحرف آخر مثله صعب عليه ذلك»29.

ولمّا كان القرآن الكريم مُصنّفا في أعلى درجات الانسجام الصوتي، فإنّ ظاهرة الإدغام مافتئت تفارقه في جلّ آياته وسوره، مُتّخذة من الأصوات المتجانسة حقلا خصبا تميّز به الخطاب القرآني، إذ إنّه يعمل على تقريب صفات الحروف من بعضها البعض، حتّى تتّسم القراءة بالسّهولة في النّطق والمرونة في الأداء، مصداقا لقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ سورة القمر، الآية:17.

نلمح من معالم تيسير القرآن الكريم شدّة انسجامه وتناسقه النّاجم عن تناسب جانبين«جانب الألفاظ وجانب المعاني، فأمّا من جانب الألفاظ فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التّراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث تخفّ على الألسنة، وأمّا من جانب المعاني، فبوضوح انتزاعها من التّراكيب»30، ومن الآيات القرآنية الدّالّة على تمام الانسجام والتّناسق النّاجم عن ظاهرة الإدغام قوله تعالى:﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13)﴾ سورة القلم، الآيات: 10-13.، حيثُ إنّنا لو فكّكنا الإدغام لاستحال على القارئ قراءة الآيات بوتيرة يسيرة لعسر التّعامل مع الحروف حين فكّ الإدغام عنها، فتتوالى اللاّمات والميمات والنّونات غير المدغمة، فيغيب الانسجام والتّجانس الصّوتي أثناء قراءة القرآن، الذي يعدّ ملمحا من أعلى ملامح الخصائص الأسلوبية المميّزة للغة القرآن الكريم، فالإدغام كظاهرة صوتية يعمل على إقصاء اللبس أثناء التّلاوة ويعمل على جلاء الدّلالة عن طريق المحافظة على بناء الكلمة ونسقها، فالإدغام يعمل على«تماسك الكلمة، والكلمة في موضعها من الإعجاز في

تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية» 31. فضلا عمّا ذهب إليه القرّاء من أثر الإدغام في تحقيق التّجانس الصّوتي والتّلاؤم الذي يعدّ قطب الرّحى في الدّراسات البلاغية، فإنّهم أشاروا إلى القول بأنّ للإدغام دورا في الوقوف على دلالة المعنى ومشاهدتها من خلال توظيف الإدغام وفكّه، أي إنّ الخطاب القرآني أحيانا ينزع إلى الإدغام وأحيانا أخرى يعدل عنه من أجل دلالة معيّنة كقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125)﴾سورة آل عمران، الآيات:125،124.

حيث إنّ ورود الإدغام في لفظة" يُمِدَّكُمْ "وانتفاؤه في لفظة"يُمْدِدْكُمْ"يوحي إلى دلالات معيّنة متباينة بين اللفظتين، حيث إنّ اللفظة المدغمة الأولى تحاكي حالهم من الخوف حينما أوجسوا في أنفسهم خيفة أمام قوّة عاتية بخيلها وخيلائها، ثم انتقل إلى المشهد الثّاني المفعم بروح الوثوق في الله ووعده إن صدقوه بالتّقوى والإخلاص أن يمدّهم الله بعدد عظيم من الملائكة، فكان فكّ الإدغام والإبقاء على إظهار الدّالين من أهمّ الدّلالات المشيرة إلى معانٍ مقصودة في التّعبير القرآني، إذ يمكن القول بأنّ هناك ارتباطا لدلالة الفكّ بالإظهار والبيان، ودلالة أخرى لارتباط الإدغام بالإخفاء.

2- ظاهرة القطع والاستئناف:

تعدّ ظاهرة القطع والاستئناف من الظّواهر الصّوتية التي نقّب عنها النّحاة لما لها من الأهميّة في الوقوف على الدّلالة وتمييزها، فبالوقف والاستئناف تُستجلى الدّلالة ويزول الغموض واللّبس، كما أنّ هذه الظّاهرة تعتبر وسيلة ناجعة لتنفّس القارئ وأخذ كامل قوّته الصّوتية، كما أنّها تعدّ أداة إجرائية لتحسين التّلاوة وتجنيبها الوقوع في قبيح الأخطاء، ولهذه الأسباب تجلّت عند النّحاة، ثمّ القرّاء والبلاغيين.

2-1-مفهوم القطع والاستئناف

القطع لغة:عرّفه ابن منظور بقوله: القطع إبانة بعض أجزاء الجِرم من بعض فصلا، قطعه يقطعه قطعا وقطيعة وقُطوعا،...، والقطع مصدر قطعت الحبل قطعا فانقطع،...، **قال تعالى:**قطّعن أيديهنّ: أي: قطّعنها قطعا بعد قطع،...، قال تعالى:وتقطّعت بهم الأسباب أي: انقطعت أسبابهم ووُصَلهم32.

اصطلاحا: لم تحظ هذه الظّاهرة لدى النّحاة بتعريف واضح، بل كانوا يلمّحون إلى معناه وإن لم يصرّحوا به، فلم يحدّوه بحدّ، وإنّما اكتفوا بالتّمثيل إليه وذكر صوره، وما يتعلّق بذلك من شروط وأحكام، بل كانت في معرض حديثهم عن مايضمن للقرآن السّلامة اللغوية أثناء تلاوته، لأنّ«من تمام معرفة إعراب القرآن ومعانيه وغريبه، معرفة الوقف والابتداء فيه، فينبغي للقارئ أن يعرف الوقف التّامّ والوقف الكافي الذي ليس بتام، والوقف القبيح الذي ليس بتام ولا كاف»33.

أشار سيبويه إلى ظاهرة القطع والاستئناف في «باب الوقف في آخر الكلم المتحرّكة في الوصل التي لا تلحقها زيادة في الوقف، وذكرها أيضا في معرض حديثه عن البناء والسّكون بالوقف بقوله: «وأمّا الفتح والكسر والضمّ والوقف فللأسماء غير المتمكّنة...والوقف نحو :مَنْ وكمْ وقطْ وإذ»، ودهب بعض الدّارسين إلى القول بأنّ العلماء القدماء والمحدثين يركّزون في تعريفه على قطع التّوابع والاستئناف33.

الخاتمة:

وصفوة القول أن النحويين أرسوا المرتكزات التي انبنى عليها الدّرس الصّوتي العربي من مخارج الحروف وصفاتها، وتوثّبوا في قرع باب التجاور الصوتي وما ينجم عنه من ظواهر صوتية كالإدغام، وتناولو القطع والاستئناف والحروف المستحسنة والمستهجنة ودلالة الأصوات على المعاني، على غرار ماأثراه ابن جني في كتابه الخصائص، فكان عملهم متّكئا للمنقّبين بعدهم من جمهور البلاغيين والمفسرين والقراء، حيث استثمروا جهودهم في الوقوف على مكامن الإعجاز اللغوي في القرآن خاصة باب صفات الحروف، للوقوف على أسرار الفصاحة والبيان والبلاغة القرآنية التي جعلت من القرآن الكريم الرافد المرجعي لمعرفة الفصاحة في الكلام من عدمها.

الهوامش:

-- القرآن الكريم.

2- ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط1424،01هـ-2003م)، ج01، ص: 57 - 64

3- المصدر نفسه، ج01، ص: 41.

4- ينظر: ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 57.

5- الخليل، العين، ص: 38.

6- محمّد حسين علي الصّغير، الصّوت اللغوي في القرآن، دار المؤرّخ العربي، بيروت (لبنان)، ط01، (1420هـ-2000م)، ص:41 .

7- عبد القادر حسين، أثر النّحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، (1998م)، ص: 55.

8- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج03، ص: 323.

9- يُنظر: المصدر نفسه، ج01، ص: 43.

10- المصدر نفسه، ج01، ص: 38.

11- سيبويه، الكتاب، ج04، ص:431.

12- المصدر نفسه، ص:431.

13- سيبويه، الكتاب ، ص: 431.

14- ابن جني ، سر صناعة الاعراب، تح حسن هنداوي، (دط)، ج01، ص:51.

15- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين،ج01، ص: 37.

16- المبرّد، المقتضب، تح عبد الخالق عظيمة، مطبعة دار التحرير، القاهرة،ط03، (1415هـ-1994م)،ج1، ص: 330 .

17- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح محمد علي الضّباع، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ج01، ص: 160.

18- ينظر سيبويه، الكتاب، ص:434-436.

19 - المبرّد، المقتضب، تح عبد الخالق عظيمة، مطبعة دار التحرير، القاهرة،ط03، (1415هـ-1994م)،ج1، ص: 330 .

20- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح محمد علي الضّباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج01، ص: 160.

21- ينظر سيبويه، الكتاب، ص:434-436.

22- ابن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار، المكتبة العلمية،ج02، ص: 157.

23 - ابن جنّي، الخصائص، ج02، ص: 158.

24 - فاتن خليل محجازي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار النشر الدولي، الرياض، ط2،(1434هـ،2013م)، ص:195.

25- ابن منظور، لسان العرب، تح علي عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر،(دط)، ج15، ص:1391.

26 -ينظر ابن جنّي، الخصائص، ج02، ص:139، 140.

27 - علي بلعاليه دومة أبو عمر المجاجي، المصباح المفيد في علم القراءات والتجويد، دار الأمل، تيزي وزو-الجزائر-، د.ط، (1998م) ص:153.

28- سيبويه، الكتاب، ج04، ص:437 .

29 - ماهر خضير هاشم، المشاكلة في اللغة العربية (صوتيا وصرفيا)، مجلة جامعة بابل، المجلد 18، العدد(3)، السّنة: (2010)،ص:03.

30ابن جنّي، المنصف، تح إبراهيم مصطفى، عبد الله أمين، إدارة إحياء التّراث القديم-وزارة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط1،(1373هـ-1954م)، ج02، ص: 2.

31 - علي بلعاليه دومة أبو عمر المجاجي، المصباح المفيد في علم القراءات والتجويد، ص:153.

32 - ينظر ، علي محمّد الضّباع، الإضاءة في بيان أصول القراءة، تح محمد خلف الحسيني، المكتبة الأزهرية للتّراث، مصر، ط01، (1420هـ-1999م)، ص:13 .

33- عبد الفتاح عبد الغني القاضي، الوافي في شرح الشاطبية، مطبعة دار السلام، مصر، ط05،(1429هـ-2008م)، ص43.

قائمة المصادر والمراجع :

- عبد الفتاح عبد الغني القاضي، الوافي في شرح الشاطبية، مطبعة دار السلام، مصر، ط05،(1429هـ-2008م
- علي محمّد الضّباع، الإضاءة في بيان أصول القراءة، تح محمد خلف الحسيني، المكتبة الأزهرية للتّراث، مصر، ط01، (1420هـ-1999م)
- ابن جنّي، المنصف، تح إبراهيم مصطفى، عبد الله أمين، إدارة إحياء التّراث القديم-وزارة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط1،(1373هـ-1954م.
- ماهر خضير هاشم، المشاكلة في اللغة العربية (صوتيا وصرفيا)، مجلة جامعة بابل، المجلد 18، العدد(3)، السّنة: (2010)
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط1424،01هـ-2003م)
- محمّد حسين علي الصّغير، الصّوت اللغوي في القرآن، دار المؤرّخ العربي، بيروت (لبنان)، ط01، (1420هـ-2000م)،
- عبد القادر حسين، أثر النّحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، (1998م)
- المبرّد، المقتضب، تح عبد الخالق عظيمة، مطبعة دار التحرير، القاهرة،ط03، (1415هـ-1994م).
- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح محمد علي الضّباع، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان).
-